٨/١/
١٤٣٤

حول تفسير قوله تعالى

(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به)

شرح بسيط لقوله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) ومقارنتها مع قوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها)

محمود هلال الشيخ

١٤٣٤/١/٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله قاهر الظالمين بكبريائه وجبروته ، وناصر المستضعفين برحمته وعدله ، الذي أعد للصابرين ما لا يعلمه إلا هو ، الذي قال : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (ألئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وألئك هم المهتدون)

سبحانه وتعالى لا يغفل عمّا يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ وآله الأطهار وبعد :

نقف وقفة لطيفة مع آيتين عظيمتين من آيات الذكر الحكيم فيهما بيان عظيم لخُلق عظيم يأمرنا به رب عظيم ، نرتشف معانيهما من بعض كتب التفسير والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِنْ عَاقبْتمْ فعَاقِبوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۞ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُون ۞ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾

(سورة النحل الآية :١٢٦ ــ ١٢٧)

نزلت هذه الآية بالمدينة في سبب شهداء أحد وذلك أن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلى المسلمين يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلا مثل به غير حنظلة بن أبي عامر الراهب ، وذلك أن أباه أبا عامر الراهب كان مع أبي سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك : لئن أظهرنا الله عليهم، لنردن على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد .

ووقف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وآذانه وقطعوا مذاكيره ، وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تنزل في بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « أما إنها لو أكلتها لم تدخل النار أبداً حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيئا من جسده النار » فلما نظر

رسول الله ﷺ إلى عمه حمزة رضي الله عنه نظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه ، فقال رسول الله ﷺ :

« رحمة الله عليك فإنك ما علمنا ما كنت إلا فعّالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى تحشر من أفواج شتى أما والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك »

فأنزل الله عز وجل : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ الآية

فقال رسول الله ﷺ : « بل نصبر وأمسك عما أراد وكفر عن يمينه »

وعن أبي بن كعب قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم ، قال : فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله عز وجل ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ۞ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ فقال رجل : لا قريش بعد اليوم . فقال رسول الله ﷺ « كفوا عن القوم إلا أربعة » أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب .

﴿ وإن عاقبتم ﴾ أي : أردتم المعاقبة بأن صنع بكم سوء من قتل أو مثلة ونحوها، فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به أي : بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك .

وسمى سبحانه الفعل الأول الذي هو فعل البادئ بالشر عقوبة ، مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثاني وهو المجازي للمشاكلة ، وهي باب معروف وقع في كثير من الكتاب العزيز .

أمر الله برعاية العدل والإنصاف في هذه الآية في باب استيفاء الحقوق ، يعني : إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقتصوا بالمثل ، ولا تزيدوا عليه فإن استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله وشرعه ورحمته ، وفي الآية **دليل** على أن الأولى ترك استيفاء القصاص وذلك بطريق الإشارة والرمز والتعريض ، بأن الترك أولى فإن كان لا بد من استيفاء القصاص فيكون من غير زيادة عليه بل يجب مراعاة المماثلة ثم انتقل من طريق الإشارة إلى طريق التصريح فقال تعالى ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ يعني ولئن عفوتم وتركتم استيفاء القصاص وصبرتم كان ذلك العفو والصبر خيرا من استيفاء القصاص وفيه أجر للصابرين والعافين .

ووضع الصابرين موضع الضمير، ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد .

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر فقال : واصبر على ما أصابك من صنوف الأذى وما صبرك إلا بالله أي : بتوفيقه وتثبيته ، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ، أي : وما صبرك مصحوبا بشيء من الأشياء إلا بتوفيقه لك ، وفيه تسلية للنبي ﷺ .

ثم نهاه عن الحزن فقال : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي : على الكافرين في إعراضهم عنك ، أو لا تحزن على قتلى أحد ، فإنهم قد أفضوا إلى رحمة الله .

﴿ ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾ قرأ الجمهور بفتح الضاد، وقرأ ابن كثير بكسرها ، فقيل لغتان ، وقال أبو عمر: والضيق بالفتح الغم وبالكسر الشدة ، وقال أبو عبيد : الضيق بالكسر في قلة المعاش وفي المسكن وأما ما كان في القلب والصدر فإنه بالفتح ، وقال القتيبي : الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين فعلى هذا يكون صفة كأنه قال سبحانه وتعالى : ولا تك في أمر ضيق من مكرهم .

قال الإمام فخر الدين الرازي : هذا الكلام من المقلوب لأن الضيق صفة والصفة تكون حاصلة في الموصوف ، ولا يكون الموصوف حاصلا في الصفة فكان المعنى فلا يكن الضيق حاصلا فيك إلا أن الفائدة في قوله : ولا تك في ضيق ، هي أن الضيق إذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط بالإنسان من كل جانب ، كالقميص المحيط به فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ بهذا المعنى .

وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أي اتقوا المثلة والزيادة في القصاص وسائر المناهي وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ يعني بالعفو عن الجاني ، وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة يعني إن أردت أيها الإنسان أن أكون معك بالعون والفضل والرحمة ، فكن من المتقين المحسنين ، وفي هذا إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله .

قال بعض المشايخ : كمال الطريق صدق مع الحق، وخلق مع الخلق وكمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل أن يعمل به .

وقيل لهرم ابن حيان عند الموت : أوص ، فقال : إنما الوصية في المال ولا مال لي ، ولكني أوصيك بخواتيم سورة النحل .

ونلاحظ أن هذا المعنى ورد في قوله تعالى :

﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ . . ﴾

وبمقارنة الآيتين نرى أنهما يقرران المثلية في رد الاعتداء :

﴿ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ . . . ﴾ و ﴿ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ . . . ﴾

إذن : الحق سبحانه ، وإنْ شرع لنا الرد على الاعتداء بالمثل ، إلا أنه جعله صعباً من حيث التنفيذ ، فمن الذي يستطيع تقدير المثلية في الرد، بحيث يكون مثله تماماً دون اعتداء، ودون زيادة في العقوبة ؟ وكأن في صعوبة تقدير المثلية إشارةً إلى استحباب الانصراف عنها إلى ما هو خير منها، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴾ فقد جعل الله في الصبر سَعة وجعله خيراً من رَدِّ العقوبة ، ومقاساة تقدير المثلية فيها ، فضلاً عما في الصبر من تأليف القلوب ونَزْع الأحقاد ، كما قال الحق سبحانه : ﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ففي ذلك دَفْع لشراسة النفس، وسَدٌّ لمنافذ الانتقام ، وقضاء على الضغائن والأحقاد .

وقوله : ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴾ الخيرية هنا من وجوه :

أولاً : في الصبر وعدم رَدِّ العقوبة بمثلها إنهاءٌ للخصومات ، وراحة للمجتمع أن تفزعه سلسلة لا تنتهي من العداوة .

ثانياً : مَنْ ظُلِم من الخلق ، فصبر على ظلمهم ، فقد ضمن أن الله تعالى في جواره ؛ لأن الله يغار على عبده المظلوم ، ويجعله في معيته وحفظه ؛ لذلك قالوا : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضنَّ عليه بالظلم .

والمتتبع لآيات الصبر في القرآن الكريم يجد تشابهاً في تذييل بعض الآيات:

يقول تعالى : ﴿ واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾

وفي آية أخرى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾

ولا ننسى أن المتكلم هو الله ، إذن : ليس المعنى واحداً ، فلكل حرف هنا معنى ، والمواقف مختلفة ، فانظر إلى دِقّة التعبير القرآني .

ولما كانت المصائب التي تصيب الإنسان على نوعين :

النوع الأول : هناك مصائب تلحق الإنسان بقضاء الله وقدره ، وليس له غريم فيها ، كمن أُصيب في صحته أو تعرَّض لجائحة في ماله ، أو انهار بيته. . الخ .

وفي هذا النوع من المصائب يشعر الإنسان بألم الفَقْد ولذْعة الخسارة ، لكن لا ضغن فيها على أحد .

إذن : الصبر على هذه الأحداث قريب لأنه ابتلاء وقضاء وقدر، فلا يحتاج الأمر بالصبر هنا إلى توكيد ، ويناسبه قوله تعالى :

﴿ واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾

أما النوع الآخر : فهو المصائب التي تقع بفعل فاعل ، كالقتل مثلاً ، فإلى جانب الفَقْد يوجد غريم لك ، يثير حفيظتك ، ويهيج غضبك ، ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته ، فالصبر في هذه أصعب وحَمْلُ النفس عليه يحتاج إلى توكيد كما في الآية الثانية :﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور﴾ فاستعمل هنا لام التوكيد ؛ لأن الصبر هنا شاقٌّ ، والفرصة مُتَاحَة للشيطان لِيُؤلِّب القلوب ، ويثير الضغائن والأحقاد .

كما نلاحظ في الآية الأولى قال : ﴿ وَاصْبِرْ﴾ ، وفي الثانية قال : ﴿ صَبَر وغَفَر﴾ لأن أمامه غريماً يدعوه لأنْ يغفر له .

ويُحكى في قصص العرب قصة اليهودي المرابي الذي أعطى رجلاً مالاً على أنْ يردَّه في أجل معلوم ، واشترط عليه إنْ لم يَفِ بالسداد في الوقت المحدد يقطع رَطْلاً من لحمه ، ووافق الرجل ، وعند موعد السداد لم يستطع الرجل أداء ما عليه ، فرفع اليهودي الأمر إلى القاضي وقَصَّ عليه ما بينهما من اتفاق ، وكان القاضي صاحب فِطْنة فقال : نعم العقد شريعة المتعاقدين ، وأمر له بسكين ، وقال : خُذْ من لحمه رَطْلاً ، ولكن في ضربة واحدة ، وإنْ زاد عن الرطل أو نقص أخذناه من لحمك أنت ، ولما رأى اليهودي مشقة ما هو مُقْدِم عليه آثر السلامة وتصالح مع خصمه .

فصل :

اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة أم لا ، على قولين :

أحدهما : أنها نزلت قبل براءة فأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يقاتل من قاتله ولا يبدأ بالقتال ثم نسخ ذلك وأمر بالجهاد وهذا قول ابن عباس والضحاك ، فعلى هذا يكون معنى قوله ولئن صبرتم عن القتال ، فلما أعز الله الإسلام وكثر أهله أمر الله رسوله ﷺ بالجهاد ونسخ هذا بقوله تعالى :

﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ الآية .

القول الثاني : قول الجمهور أنها أحكمت وأنها نزلت فيمن ظلم ظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال منها الظالم وهذا قول مجاهد والشعبي والنخعي وابن سيرين والثوري .

والأصح أنها محكمة لأن الآية واردة في تعليم حسن الأدب في كيفية استيفاء الحقوق وفي القصاص وترك التعدي وهو طلب الزيادة ، وهذه الأشياء لا تكون منسوخة فلا تعلق لها بالنسخ والله أعلم .

*** *** ***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالَّذِينَ إِذا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُون * وَجَزَاءُ سَيِّئةٍ سَيِّئةٌ مِثْلُهَا فمَنْ عَفا وَأصْلحَ فأجْرُهُ عَلى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئِكَ مَا عَليْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلى الَّذِينَ يَظْلِمُون النَّاسَ وَيَبْغُون فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أولئِكَ لهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ * وَلمنْ صَبَرَ وَغفرَ إِنَّ ذلِكَ لمِنْ عَزْمِ الأمُور ﴾

(سورة الشورى الآية : ٤٠ ـ٤١ ـ ٤٢)

والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون أي : أصابهم بغي من بَغَى عليهم بغير الحق ، ذَكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل الله له العزة حيث قال :

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ فالانتصار عند البغي فضيلة ، كما أن العفو عند الغضب فضيلة .

ولكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله الله له وعدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾

فبين سبحانه أن العدل في الانتصار هو الاقتصار على المساواة ، وظاهر هذا العموم ، وقال مقاتل والشافعي وأبو حنيفة وسفيان : إن هذا خاص بالمجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره .

وقال مجاهد والسدي : هو جواب القبيح إذا قال أخزاك الله يقول أخزاك الله من غير أن يعتدي .

وتسمية الجزاء سيئة إما لكونها تسوء من وقعت عليه أو على طريق المشاكلة لتشابههما في الصورة .

ثم لما بين سبحانه أن جزاء السيئة بمثلها حق جائز بيّن فضيلة العفو فقال : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ أي : من عفا عمن ظلمه وأصلح بالعفو بيْنَه وبين ظالمه أي : أن الله سبحانه يأجره على ذلك ، وأبهم الأجر تعظيما لشأنه ، وتنبيها على جلالته .

قال مقاتل : فكان العفو من الأعمال الصالحة .

ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته التي هي سبب الفوز والنجاة فقال : ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ أي : المبتدئين بالظلم .

قال مقاتل : يعني من يبدأ بالظلم ، وبه قال سعيد بن جبير .

وقيل: لا يحب من يتعدى في الاقتصاص ويجاوز الحد فيه لأن المجاوزة ظلم .

ولمن انتصر بعد ظلمه مصدر مضاف إلى المفعول ، أي : بعد أن ظلمه الظالم له ، واللام هي لام الابتداء .

وقال ابن عطية : هي لام القسم ، والأول أولى ، ومن : هي الشرطية ، وجوابه : فأولئك ما عليهم من سبيل بمؤاخذة وعقوبة ، ويجوز أن تكون من : هي الموصولة ، ودخلت الفاء في جوابها تشبيها للموصولة بالشرطية، والأول أولى .

ولما نفى سبحانه السبيل على من انتصر بعد ظلمه بيّن مَن عليه السبيل فقال : إنما السبيل على الذين يظلمون الناس أي : يتعدون عليهم ابتداء كذا قال الأكثر .

وقال ابن جريج : أي يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم ويبغون في الأرض بغير الحق أي : يعملون في النفوس والأموال بغير الحق كذا قال الأكثر .

وقال مقاتل : بغيهم : عملهم بالمعاصي ، وقيل : يتكبرون ويتجبرون .

ثم رغب سبحانه في الصبر والعفو فقال : ولمن صبر وغفر أي : صبر على الأذى وغفر لمن ظلمه ولم ينتصر، والكلام في هذه اللام ومن كالكلام في ولمن انتصر (إن ذلك) الصبر والمغفرة لمن عزم الأمور .

وقال قتادة : إنه عام ، وهو ظاهر النظم القرآني ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده أي : فما له من أحد يلي هدايته وينصره ، وظاهر الآية العموم ، وقيل : هي خاصة بمن أعرض عن النبي ﷺ ولم يعمل بما دعاه من الإيمان بالله والعمل بما شرعه ، والأول أولى .

وقد أخرج أحمد ، وابن راهويه ، وابن منيع ، وعبد بن حميد ، والحكيم ، والترمذي ، وأبو يعلى ، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ،

والحاكم عن علي بن أبي طالب : قال : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله ﷺ ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ﴾ وسأفسرها لك يا علي : ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم ، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه .

وأخرج عبد بن حميد ، والترمذي عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال :

{ لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر، وقرأ وما أصابكم الآية }

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في الكفارات وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه دخل عليه بعض أصحابه ، وكان قد ابتلي في جسده ، فقال : إنا لنبتئس لك لما نرى فيك ، قال : فلا تبتئس لما ترى ، فإن ما ترى بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم تلا هذه الآية وما أصابكم من مصيبة إلى آخرها .

وأخرج أحمد عن معاوية بن أبي سفيان سمعت رسول الله ﷺ يقول:

{ ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفَّر الله عنه به من سيئاته }

وأخرج ابن مردويه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ : **{ ما عثرة قدم ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر }**

وأخرج النسائي ، وابن ماجه ، وابن مردويه عن عائشة قالت :

{ دخلت علي زينب وعندي رسول الله ﷺ فأقبلت علي فسبتني ، فردعها النبي ﷺ فلم تنته ، فقال لي : سبيها ، فسببتها حتى جف ريقها في فمها ، ووجه رسول الله ﷺ يتهلل سرورا }

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : **{ المستبان ما قالا من شيء فعلى البادئ حتى يعتدي المظلوم }** ثم قرأ وجزاء سيئة سيئة مثلها .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ :

{ إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادي ألا ليقم من كان له على الله أجر، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا } وذلك قوله : فمن عفا وأصلح فأجره على الله .

وأخرج البيهقي عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال : **{ ينادي مناد من كان له أجر على الله فليدخل الجنة مرتين ، فيقوم من عفا عن أخيه ، قال الله فمن عفا وأصلح فأجره على الله } .**

المصادر والمراجع :

لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن .

تفسير فتح القدير للشوكاني .

تفسير الشعراوي .

*** *** ***

جمع وترتيب : محمود هلال الشيخ

٨ محرم ١٤٣٤ ـ ٢٣ /٢٠١٢/١١